المحاضرة الثالثـــــــة:

الجوانب الواعية وغير الواعية في الثقافة:

لجمع أكثر الاتجاهات الأنثروبولوجية على أن تأثير الثقافة على أن تأثير الثقافة على الفرد يبدأ منذ مولده، وإن السنوات الخمس الاولى من عمره تشكل الفترة المهمة، والأساس في تكوين الشخصية. وبدءا من هذه الفترة تتكون ردود الفعل الشخصية على الحالات التي تواجهها تدريجيا، فيصبح الفرد في حالة تزويد وعطاء لذاته بالعنصر الثقافي منذ بداية تمكنه من تحقيق التفاعل الأولي مع الآخرين، من خلال فهمه لتصرفاتهم وما تحتويه من معان وأهداف ووظائف. ويدعم القرد قدرته في هذه الإضافة من خلال ديمومته في التعلم والاكتساب، وإغناء تجربته الذاتية في فهم ثقافته والإحاطة بها، ومن ثم احتوائها وتوظيفها لصالح المزيد من التفاعل المثمر مع جميع الحالات التي يعيشها وفق نظام القيم الذي أقرته ثقافة المجتمع.

لكن ما يجب ملاحظته أن العناصر الثقافية التي يتعلمها الفرد ويكتسبها سواء في السنوات الخمس الأولى، أو بعدها، ليست من طبيعة واحدة، بل هي على نوعين: عناصر واعية ومدركة مثل أدوات الطعام، والتحدث إلى الآخرين وأدوات العمل، وأثاث البيت، وسبل توزيعه على الغرف حسب وظائفه في الاستعمال، وتحية الآخرين، وأسلوب المجاملة، وآداب الطعام.. الخ. أما العناصر اللاواعية فهي مثلا الحالة النفسية (عاطفة، حب، كره) التي ترافق ردود الإنسان على الحالات التي يواجهها. فالطفل الذي يرى طريقة ردود أمه على كسر الأواني من قبله أو من قبل أخواته، فانه يمتص العديد من الجوانب النفسية لهذه الردود ويتعلمها ويكتسبها لا شعوريا، ثم يخزنها في اللاوعي عنده، وعندما يكبر يواجه كسر الأواني بالعديد من الردود المتشابهة مع ردود والدته. وعلى هذا المنوال يتعلم الإنسان ويكتسب الردود أو طرائق التعبير عن هذه

الحالة أو تلك. ولذلك يقول المثل الشعبي ((ضع الكاسة على فمها البنت ما بتطلع إلا لأمها)). وهذا المثل فيه بعض جوانب الصحة حيث أن البنت تكتسب من أمها بعض الجوانب غير الواعية الكامنة في الرد والمهم في الأمر أن الجوانب الواعية وغير الواعية من الثقافة تأخذ مكانها في الشعور تدريجيا، ثم تنتقل إلى اللاشعور بواسطة الكثير من العمليات النفسية التي يقوم بها الجهاز النفسي المكون من: الأنا والأنا الأعلى، والهوى. لكن ما يجب القول فيه إن العناصر الثقافية الواعية لا تنتقل كلها إلى اللاشعور، فما ينتقل إلى اللاشعور، العناصر القابلة للتحول إلى عناصر لا واعية. في حين أن الشعور هو مركز العناصر الواعية، لا سيما تلك التي لا تقبل التحول.

وعلى سبيل المثال فإن الطفل الذي تربى في أسرة تعيب عليه الاختلاط بالفتيات في مرحلة الشباب يخزن في اللاشعور العديد من العناصر الثقافية اللاواعية، سواء كانت قيما أو أعرافا أو تقاليد، الخاصة بذلك التحريم

وتتحول داخل الجهاز النفسي إلى مجموعة من المحددات الثقافية التحريمية غير الواعية وتمارس وظائفها داخل شخصية هذا الشاب عندما يكبر، وتقوم بإرباكه في الحديث مع الفتيات، حيث يحمر وجهه، ويتلعثم في الكلام.

وعلى الجانب الآخر فان الطفل الذي اعتاد على الاختلاط بالفتيات ومجالستهن لا يعرف هذا الارتباك لأنه لا يختزن في جهازه النفسي المحرمات السابقة، ويمكن سحب هذه الحالة على أكثر الحالات الاجتماعية التي تكمن وراءها عناصر ثقافية غير واعية أو مباشرة مكتسبة منذ الطفولة، وكأني بالطفل الذي تلقنه عائلته قيم الشرف انطلاقا من قيمة البكارة في مفهوم الشرف، وتقترن مخالفة هذه القيمة بالقصاص، فأنه يمارس القصاص الذي لقنته إياه ثقافته، اللهم، ما عدا بعض الاستثناءات التي تجعل هذا الفرد أو ذاك يكف عن هذا الفعل نتيجة لعوامل تفرض عليه بعض القيم والمواقف.

غير أن التعديل الذي يقوم به الفرد لا يكرر نفسه في جميع منظومة القيم اللاواعية وجوانبها السلوكية، لأن نظام القيم لا يعدل بشكل متساو واحد، وإنما يختلف بموجبه عملية التخلي والاكتساب الثقافي التي تحدث في النمط الثقافي العام. أو في تجربة الفرد نفسه، فقد تدفعه تلك العمليات للتخلي عن حب وطنه إذا هاجر إلى بلد آخر، ووجد أن الوطن الجديد قد وفر له جملة من العلاقات الاجتماعية والثقافية والوطنية الجديدة التي لم يجدها في بلده الأصلي، وقد تفرض عليه العمليات مزيدا من الإيمان بالشرف إذا كانت ثقافة البلد الجديد الذي أنتقل إليه تعطي أولوية لقيمة الشرف ضمن المواصفات التي أعطتها قيمة الثقافة السابقة.